تاريخ سورية المجوفة

لمعة تاريخية منه في أدبائها وعلمائها

بقلم مؤلفه عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

تمهيد

سبقت لي كلمة في وصف (تاريخ سورية المجوفة) الذي وضعته بتطويل ولا يزال مخطوطاً وذلك في هذه المجلة في المجلد السادس والصفحة ٢٨٩ — ٢٩٤ في سنة ١٩٢٦ م ونقلت منه قطعة مختصرة في تحليل الاعلام ونشرت اشياء منه في مجلة المقتطف والمقتبس والعرفان والآثار وجريدة البشير وغيرها من الصحف ايضاً كامثلة تدل عليه وتعرّفه للمطالعين ووعدت بانتخاب غير ذلك لهذه المجلة فهاك الآن لمعة عن أدباء سورية المجوفة وعلمائها أقتطفها من مباحثه المطولة فأقول :

أدباء سورية المجوفة وعلماؤها

نشأ في هذه البقعة عدد كبير من العلماء الاعلام قديماً وحديثاً ، ممن استللتُ تراجمهم من كتب كثيرة مخطوطة ومطبوعة بحسب ما وصلت اليه يد البحث والتنقيب على قلة المصادر وتبعثر الكتب المخطوطة في المكاتب الشرقية والغربية ، وصعوبة الحصول على ماضنّ به مقتنوها أو حفظوه لهم فلم آلُ جهداً في التتبع والاستعلام حتى حصلت على ما ربما يروي الغليل من تلك الآثار التي تناولت بلدان وادي التيم ووادي بردى الغربي وبلاد بعلبك والبقاع الى ما يحيط بها من الأماكن . فاقتصر الآن على علماء بلاد بعلبك فقط :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ادباء بعلبك

كانت هذه المدينة المشهورة بآثارها القديمة العجيبة مظهراً من مظاهر العظمة وميداناً للعبادات القديمة والأساطير الغريبة فنبغ فيها المتفننون من بنائين ونقاشين ومصورين ورياضيين وفلكيين ومهندسين ومخترعين ومؤلفين كما تشهد بذلك أعمالهم الباقية وأبنيتهم الشامخة ونقوشهم الرائعة وهندستهم الفائقة وتآليفهم الشائقة .

وكانت بعلبك فوق ذلك ولاسيما في ايام العرب دار علم وحديث ومباءة للعلماء يرحلون اليها في طلب المعارف وتحقيق الدروس فقصدها كثير منهم حصلوا فيها ما حصلوا بالدرس على علمائها ونبغ من ابنائها وما يجاورهم كثير ممن تشهد لهم آثار اقلامهم الى اليوم .

فروى المؤرخون ومنهم الحافظ ابن عساكر المشهور في تاريخ دمشق المطول[1] عن جماعات نشأوا فيها وتخرج عليهم من قصدهم من الطلاب . وذكر غيره كثيراً ممن رحل الى بعلبك ومنهم الشيخ محمد بن مالك الاندلسي مؤلف الألفية في النحو الذي سكن بعلبك وقرأ عليه فيها جماعة .

(فمن المهندسين) كالنيكوس البعلبكي الذي كان في القرن السابع للميلاد وهو مخترع (النار اليونانية) وهي كرات خزفية رمانية الشكل او صنوبرية محشوة بالنفط والكبريت والقطران وأشباهها من المواد المشتعلة والمنفجرة تشعل بفتيل داخل فيها فتنفجر وتدك الابنية والحصون وكان اول استعمالها في مهاجمة معاوية بن ابي سفيان الأموي للقسطنطينية فردته تلك النيران عن فتحها وفي متحف مجمعنا العلمي في دمشق كثير منها .

وقسطا بن لوقا البعلبكي اليوناني المسيحي المشهور بالهندسة والرياضيات والفلسفة والفلك

---

(١) طبع من هذا التاريخ الذي هذبه المرحوم الشيخ عبد القادر بدران خمسة مجلدات قبل الحرب وطوي نشر الباقي الى ان قام بهذا العمل صديقنا الأستاذ احمد افندي عبيد الدمشقي صاحب مكتبة العرب فنشر المجلدين السادس والسابع بضبط وجودة طبع وحواش .

ومما طبع من مؤلفات قسطا (كتاب الفلاحة اليونانية) تعريبه طبع بمصر سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) في ١٤٩ صفحة . وكتاب (في رفع الأثقال) صححه البارون كرّه دي ڤو . طبعه في باريس سنة ١٨٩٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والموسيقى والطب وبمعرفة اللغات الكثيرة وبالبراعة في الترجمة وبجودة القريحة وطلاوة الانشاء . وهو معاصر ليعقوب بن اسحق الكندي فيلسوف الاسلام . ذكره ابو الفرج الملطي بقوله : «فلو قلت حقاً انه أفضل من صنّف كتاباً لما احتوى عليه من العلوم والفضائل وما رزق من اختصار الألفاظ وجمع المعاني» توفي سنة ٢٩٦ هـ (٩٠٨ م) في بلاد ارمينية ومؤلفاته أكثر من مائة بين تأليف وترجمة وتصحيح من رسائل ومجلدات في جميع الفنون والعلوم منها (كتاب الفردوس في التاريخ) و(مراتب قراءة الكتب الطبية) و (آداب الفلاسفة) و (والفرق بين النفس والروح) و (ترجمة ديوفنطس في الجبر والمقابلة) و (شكوك كتاب اقليدس[1]) وغيرها . قال عبيدالله بن جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري المشهور : «إن قسطا اجتذبه سنحاريب الى ارمينية واقام فيها فاقترح عليه ابو الغطريف البطريق من اهل الفضل تصنيف كتب كثيرة في اصناف العلوم فوضعها» .

ومن متأخري مهندسيها ابو بكر بن البصيص البعلبكي الذي ذكره صالح بن يحيى البحتري في (تاريخ بيروت) انه استقدم سنة ٧٤٤ هـ (١٣٤٣ م) لبناء جسر الدامور وله اعمال في بلاد طرابلس وجسر نهر الكلب القديم كان من بنائه .

«ومن شعرائها» : عماد الدين ابو الفضل حسان بن سلطان بن رافع اليونيني (نسبة الى قرية يونين من اعمال بعلبك) الفقيه الذي انشد :

لقد منعتني عن سليمى ثلاثة ... اذا ما استعار الجو ثوباً من الهجر
ضياء محيّاها وجرس حليها ... ونفحة نشر دونه عبق العطر
هَبَ أن المحيّا قنّعته ببرقع ... وحلت حلاها كيف تفعل بالنشر

وحسان بن ابان الذي كان في زمن المتوكل على الله العباسي في القرن الثالث للهجرة والتاسع للميلاد ومن شعره قوله :

اكتسب مالاً تعيش به ... ليس عيش المرء من نسبه
عربيّ لا يسار له ... صقلبيّ القدر في عَرَبه

(١) نشرت بعض رسائله في اوربة والشرق ووقفت على كثير من المخطوط منها وفي خزانتي ردّ قسطا على ابن المنجم ورسالة هذا اليه وردّ حنين بن اسحق على ابن المنجم ورسالة هذا اليه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتراهم خاضعين له ما بدا يختال في نشبه
أمرا فيهم وكلهم باسط كفاً الى سببه
طمعاً في نيل فضته ليس الا ذاك أو ذهبه
وأديب قد رثيت له ما له عيب سوى أدبه
جاءهم فاستدفعوه كما يُتّقى ذو الداء من جربه
دع لذي جهل تمادَيهُ في الذي يدنيه من عطبه
وتوقّ ما يُساءُ به ان جبن الكلب في كَلَبه

والحسن بن جعفر بن حمزة ابو محمد الأنصاري البعلبكي المعروف بابن بريك قيل انه من وُلد النعمان بن بشير . وكان يتهم بالرفض توفي سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) ومن شعره قوله في أبيات :

قابل البلوى اذا حلّت بصبر ومسرّه
فلعلّ الله أن يوليك بعد العسر يسره
كم عهدنا نكبة حلّت فولت بعد فتره

وقوله من قصيدة :

كأن صروف الدهر لم تلق منزلاً تحلُّ به غيري فحلّت بجانبي
فاصبحت من وشك الفراق وبينهم من السقم اخفى من دبيب بحاجبي
سميري اذا ما الليل ارخى جرانه لما بي من وجدٍ مسير الكواكب
فمالي والدهر الخؤون كأنما جنيت فجازاني ببعد الأقارب
فليت الليالي اذ ولعنَ ببيننا جعلن الردى مقرونة بالمعاطب
ابى الدهر الا شتّ شملي وفرقة وروعة مصحوب بغيبة صاحب
واني لذو صبر على كل نكبة وقد هذّبتني للأمور تجاربي
وذلك طبعي قبل ان يصدع النوى فمذ صدعت سدّت عليّ مذاهبي

وبهاء الدين العاملي صاحب الكشكول والمخلاة ولد في بعلبك سنة ٩١٨ هـ (١٥١٢م) وتوفي بالمصلّى من قرى البحرين سنة ٩٨٤ هـ (١٥٧٦ م) وله موشحات واشعار بليغة منها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما ارسله الى والده الشيخ الحسين بن عبد الصمد العاملي الحارثي الهمذاني او الى غيره من أدباء عصره . فمن قوله لوالده :

بقزوين جسمي وروحي ثوت ... بارض الهواة وسكانها
فهذا تغرب عن أهله ... وتلك اقامت بأوطانها

وقوله في الموت :

ان هذا الموت يكرهه ... كل من يمشي على الغبرا
وبعين العقل لو نظروا ... لرأوه الراحة الكبرى

والأمير موسى الحرفوشي امير بعلبك ابًا عن جد[1] توفي سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٧ م) بدمشق وهو الملقب (الحرّان) لمواقعه الحارة فانه حاصر خمسة باشوات مع جيشهم في بعلبك وضواحيها وهو وحده فقاتلهم ولم ينالوا منه شيئًا ومن شعره قوله لما فتح غزيرًا في لبنان :

غزير طور ونار الحرب موقدة ... وانت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصا تتلقف كل ما صنعوا ... ولا تقف ما حبال القوم حيات

ومن نظمه قوله مفتخرًا :

كأن رأس جيوش الضدّ ليس له ... علم بأن بلادي موطن الأسد
ومن مهابة سيفي في القلوب غدت ... أم العدوّ لغير الموت لم تلد
فليرقبوا صدمةً مني معوّدةً ... أن لا تقرّ لها الأعداء في البلد
ألست نجل عليّ وهو من عرفوا ... منه المخافة في الأحشاء والكبد
وانني انا موسى منه قد ورثت ... كفي سيوفًا تذيب الأرض في الجلد

وامير شعراء الحرافشة هو الامير محمد بن علي الحرفوشي الحريري العاملي الدمشقي توفي سنة ١٠٥٩ هـ (١٦٤٩ م) وله مصنفات كثيرة رأيت اكثرها في دمشق منها (اللآلي الدرية في شرح الاجرومية) في مجلدين و (شرح التهذيب في النحو) . و (نهج النجاة في ما اختلف فيه النحاة) قال البديعي في ذكرى حبيب «انه كتاب لم ينسج على منواله يعرب

(١) وضعت تاريخًا مطولاً للأمراء الحرافشة ومشاهيرهم وانسابهم وقد نشرت منه أمثلة في مجلة العرفان (في صيدا) واستنسخت ما قيل عنهم في مكاتب اوربة وذلك لأن أجدادي كانوا مقرّبين منهم ونافذي الكلمة لديهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عن غزارة فضله » و (طرائف النظام ولطائف الانسجام) في محاسن الاشعار وغيرها وله الشعر الذي قال فيه البديعي انه : « الشعر الذي ديباجة الفاظه مصقولة ، وحلاوة معانيه معسولة » وقال المحبي : وكان في الشعر مكثراً محسناً في جميع مقاصده » فمن شعره قوله في الخال وله فيه مقاطيع بليغة كثيرة :

قال لي من غدا امام أولي الفضـ ـل ورب المباحث الفلسفية
ان عندي برهان حق على نفي الهيولى والصورة الجسميـة
قلت : ماهو (؟) فقال شامة حبي قد غدت وهي نقطة جوهرية

وقوله من قصيدة في مدح الأمير محمد النجكي وأبدع في وصف السيف والجواد بقوله :

فدارك حيث صادفت اعتزازاً واهلك ذو الحفيظة والوداد
ولا تصحب سوى عضب نحيلٍ تعشّق متنه ضرب الهوادي
صقيل الصفح رقّ وكاد لولا الـ ـ بجفين يسيل من طرف النجاد
تخالـ ـه وليس به غديراً ترقرق او سعيراً ذا اتقاد
وتحسبه اذا ما استل برقـاً تألق في الدجى غبّ العهاد
والا ظهر مسرحوب سليل الفحول من المطهمة الجياد
يرى عاراً مسابقة النعامى ويأنف نعله مسّ الصلاد
فلو وطئ القطا ما ارتعن منه نياماً وانتبهن من الرقاد
بدا كالخيزرانة من نحولٍ من الادلاج في هجل البوادي
يمرّ على الغدير به غليل فيهجره لفرط الاجتهاد
تساوى عنده حزن وسهل وآكام مروّعة ووادي

ومن متأخري شعراء بعلبك في القرن الثاني عشر للهجرة ابو الحسن علي بن محمد الشمعة من بيت علم وفضل فمن شعره قوله في كتاب (التحفة الظريفة) للسيد حسن بن عثمان الحكيم الذي جمعه سنة ١١٨٨ هـ (١٧٧٤ م) :

ابدى لنا الحسن الشريف لطائفاً قد صاغها لذوي النهى مجموعا
كل المفرّق من محاسن عصره اضحى لدى (مجموعه) مجموعا

وقوله مضمناً :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لما بفكري مرَّ طيف خياله واردتُ انظر وجنة لم تلثم
كادت تسيل لطافة لكنه «من عادة الكافور امساك الدم»

وقوله مشطراً لبعضهم :

«أحمامة الوادي بشرقيّ الغضا» قد طاب مغناك ولذَّ لمسمعي
ورميتِ في قلبي تباريح الجوى «ان كنت مسعدة الكئيب فرجعي»
«انّا تقاسمنا الغضا فغصونه» لك معهد يسقى بسحّ الأدمع
وظلاله لي موطن وزهوره «في راحتيكِ وجمره في أضلعي»

ومنهم من نبغ في هذا العصر مثل شاعر القطرين خليل بك المطران . والشيخ علي النقي زغيب والمرحوم عساف الكفوري وغيرهم .

زحلة : عيسى اسكندر المعلوف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net